قصة الصراع بين الإنسان والشيطان

(الوقاية والحفظ)

بقلم

د. عبد الرحمن محمد علي عويس

أستاذ التفسير المساعد بكلية أصول الدين جامعة الأزهر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وبعد فهذا بحث قد وضعته لبيان الوسائل والأساليب التي تحفظ من كيد الشيطان وضرره، وسأحاول فيه بمشيئة الله تعالى أن أشخص الدواء وأن أبين أساليب العلاج والدواء ومن الله سبحانه نرجو العون والسداد والتوفيق.

مدخـــل:

من عظم البلاء أن يبتلى الإنسان بعدو لا يمكن للإنسان رؤيته أو الإحساس به بحواسه المجردة، ويزيد من عظم هذا البلاء أن لهذا العدو فى الإضلال خبرة ودراية بطول عمر البشرية، تفنى الأجيال وتتابع الأمم، وتتوالى الحضارات وهو قائم بمهامه فى الإغواء والإغراء والإضلال ، لا يكل ولا يمل، أضف إلى ذلك أن الحق سبحانه قد أطلق يده ليصنع مع البشرية ما يشاء.

ولكن مع ذلك فإن من فضل الله على عباده ومن بالغ رحمته وكرمه وإحسانه أنه سبحانه لم يتركه ألعوبة في يد الشيطان يعبث بهم كيف يشاء، أو يصنع بهم ما يريد، من غير أن يبصرهم سبحانه بطبيعة هذا الصراع، وبمقدار الخطر الذي يتهددهم في معركتهم معه. ولم يترك الحق عباده تتخبط في ظلمات الجاهلية من غير أن يبصرهم بما ينجيهم، وينقذهم من الوقوع في براثن الشيطان، أو الضياع في دروبه المهلكة.

لقد فصل لنا الحق سبحانه كل كبيرة وصغيرة تتعلق بهذا الأمر، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وذلك ليكون الناس على بصيرة من أمرهم وعلى بينة من شأنهم، وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإلى الله ترجع الأمور.

ومن هذا المنطلق بين لنا الحق سبحانه وسائل الشيطان في الإضلال وكشف لنا عن أساليبه في الإغواء والإغراء والفساد والإفساد، وذلك ليعرف الناس حجم الخطر الذي يتهددهم وليمكنهم كذلك من مجابهته ومواجهته والتغلب عليه.

وأعطانا من القدرات والإمكانات ما يمكننا من الوقوف في مواجهة كيد الشيطان، فما من داء إلا وله دواء، وما من كيد يملكه الشيطان إلا وهناك ما يذهبه،وما من سحر إلا وله ما يبطله. فالحق سبحانه وتعالى أرحم بعباده من أنفسهم، وأرأف بهم من أن يتركهم كما ذكرنا من قبل ألعوبة في يد الشيطان يعبث بهم كيف يشاء.

فبداية يخبرنا الحق سبحانه أن كيد الشيطان كان ضعيفاً، وذلك حتى لا يدب اليأس إلى قلوبنا والقنوط إلى نفوسنا، وحتى نعلم بأن في مكنتنا واستطاعتنا وقدرتنا مواجهة كيد الشيطان. حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

كذلك يخبرنا الحق سبحانه بأن سلطان الشيطان وسيطرته لها حد معين لا تتجاوزه ، وليست على جميع البشر كذلك، وإنما سلطان الشيطان وسيطرته على فريق معين من البشر هم من استحوذ عليهم الشيطان وأغواهم وأغراهم وخدعهم وجرهم خلفه في طريق الغواية والضلال، أما عباد الله المخلصون فلا سبيل للشيطان عليهم، ولا قدرة له على مواجهتهم حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

وهذا أمر أقر به الشيطان نفسه وبينته آيات القرآن على لسان الشيطان حيث يقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

مما يوضح لنا القوة الحقيقية للشيطان، فلا يضخم العبد من قدرات الشيطان، كذلك لا يستهين بمكره وكيده، فلقد جعل الحق سبحانه سلطان الشيطان وسيطرته على من تولاه من عباده الفاسقين والفاجرين والكافرين.

وبالإضافة إلى ذلك يكشف لنا الحق سبحانه في كتابه الكريم عن وسائل الشيطان في الإضلال وأساليبه في الإغواء والإفساد حتى يكون الناس على بينة من أمرهم وبصيرة وهداية وكي يكونوا كذلك على علم تام بوسائله ودراية كاملة بأساليبه فلن يقدر الشيطان أن يأتيهم على غرة، أو أن يهاجمهم على غفلة إلا من أسلم زمام أمره للشيطان وكيده.

ومن هذا المنطلق وضعت هذا البحث لكشف هذه الحقائق وبيانها وكان الحديث فيه على النحو التالي :

عناصر البحث :

١-الاستعاذة بالله تعالى
٢- التوبة النصوح
٣-إخلاص العبودية لله تعالى
٤- الاستمساك بالكتاب والسنة:
٥-لزوم جماعة المسلمين
٦-عدم الغفلة عن ذكر الله تعالى
٧-حفظ الجوارح والحواس
٨-إن كيد الشيطان كان ضعيفاً
٩ -الحكمة من خلق الشيطان
١٠-الحكمة في بقاء إبليس حتى آخر الدهر

لقد ذكر لنا المولى سبحانه في كتابه وسائل كثيرة تعيننا على مواجهة كيد الشيطان والسلامة من شره وبيانها والحديث فيها على النحو التالي:

الأولى : الاستعاذة بالله تعالى

إذا كان الشيطان عدواً لا يُرى ولا يُسمع ولا يُحس بالحواس المجردة فكيف العصمة والحماية منه ؟ إن أقرب طريق إلى ذلك أن يطلب العبد الحماية من ربه وخالقه وخالق الشيطان كذلك ألا وهو رب الأرض والسماء ومالك الملك سبحانه تعالى فهو القادر على أن يحفظنا ويحمينا ويعصمنا إذا ما لجأنا إليه ، ولقد أرشدنا الحق سبحانه إلى ذلك وأمرنا أن نلوذ به وأن نلجأ إليه سبحانه وتعالى وحده إذا ما أحس العبد بنزغات الشيطان ووساوسه حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٢٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٧، ٩٨].

ومعنى الاستعاذة: الاحتماء بالله والالتجاء إليه والنصرة به وتفويض الأمر إليه

قال الراغب الأصفهاني: العوذ: الالتجاء إلى الغير والتعلق به. يقال: عاذ فلان بفلان، وقوله: {معاذ الله} [يوسف/٧٩]، أي: نلتجئ إليه ونستنصر به أن نفعل ذلك، فإن ذلك سوء نتحاشى من تعاطيه.

والشيطان واحد الشياطين. وهو مُشْتَقّ مِنْ شَطَنَ إذا بَعُدَ فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ وَبَعِيد بِفِسْقِهِ عَنْ كُلّ خَيْر.

أو بمعنى احترق: مُشْتَقّ مِنْ شَاطَ إذا احترق لِأَنَّهُ مَخْلُوق مِنْ نَار.(١)

والرجيم: فَعيل بمعنى مفعول، وله معان عدة: الرمي والقذف، الطرد والإبعاد، الشتم واللعن.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (نسخة محققة) للراغب الأصفهاني / ط دار القلم دمشق مادة شاط .

وعلى ذلك: فمَعْنَى أَعُوذ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم أَيْ أَسْتَجِير بِجَنَابِ اللَّه – دون غيره من سائر خلقه – [١] مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم أَنْ يَضُرّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ أَوْ يَصُدّنِي عَنْ فِعْل مَا أُمِرْت بِهِ أَوْ يَحُثّنِي عَلَى فِعْل مَا نُهِيت عَنْهُ .

مواطن الاستعاذة ومواضعها:

وللاستعاذة بالله سبحانه مواضع تستحب فيها منها:

أ –الاستعاذة عند قراءة القرآن: فأمر الله سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن

ب – الاستعاذة في الصلاة: والاستعاذة كذلك علاج لما يلقيه الشيطان في الصلاة من وساوس لينقص الأجر ويبعد الخشوع ، فعن ابن العلاء: أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: " ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا" قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[٢].

ج– الاستعاذة عند الغضب: عن سليمان بن مرد قال: "كنت جالسا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد فقالوا له إن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: تعوذ بالله من الشيطان فقال: وهل بي جنون[٣]"

ويأتي هذا العلاج متجانسا مع هذا المدخل الشيطاني ذلك" إن الغضب نوع من شر الشيطان ولهذا يخرج به عن صورته ، ويزين إفساد حاله كتقطيع ثوبه

---

١ (تفسير الطبري) .

(٢) مسلم كتاب السلام . حديث رقم ٤٠٨٣ .

(٣)البخاري . كتاب بدء الخلق . حديث رقم ٣٠٤٠ .

وكسر آنيته أو الإقدام على من أغضبه ونحو ذلك مما يتعاطاه من يخرج عن الاعتدال" فلا يذهب هذا إلا بالاستعاذة من ذات المسبب له .

الثانية : إخلاص العبودية لله تعالى

أولاً: بيان المعنى اللغوي جاء في مفردات الراغب: (العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: {ألا تعبدوا إلا إياه} [الإسراء/٢٣].

والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير وعبادة بالاختيار. والعبد يقال على أربعة أضرب:

الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه، نحو: {العبد بالعبد} [البقرة/١٧٨]

الثاني: عبد بالإيجاد والخلق، وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله: {إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا} [مريم/٩٣].

والثالث: عبد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا فريقان: عبد لله مخلص، وهو المقصود بقوله: {واذكر عبدنا أيوب} وعبد للدنيا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإياه قصد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: (تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار[١]).

وجمع العبد الذي هو مسترق: عبيد. وجمع العبد الذي هو العابد عباد، فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد. ولهذا قال الله تعالى: {وما أنا بظلام للعبيد} [ق/٢٩][٢].

ثانياً : معنى إخلاص العبودية لله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب . كتاب الرقائق في كتاب ١٧٥/٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (نسخة محققة) للراغب الأصفهاني ١/ ٨٠٥ وما بعدها بتصرف ط دار القلم دمشق .

هي أن يكون المرء عبداً لربه -سبحانه- في شأنه كله في السراء والضراء . والشدة والرخاء وفي جميع الظروف والأحوال يكون شأنه كله وفق أمر ربه -سبحانه- :﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٤].

وكما ذكر ابن القيم رحمه الله:

(إن لله تعالى على العبد عبودية في الضراء كما له عبودية في السراء،وله عبودية فيما يكره،كما له عبودية فيما يحب.وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه تتفاوت مراتب العباد ،وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى.فمن كان عبداً لله في الحالتين قائماً بحقه في المكروه والمحبوب فذلك تناوله قوله تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ [الزمر:٢٥])[١].

وإخلاص العبودية لله هي إحدى أطواق النجاة التي يمسك بها العبد في وسط أمواج الفتن والشهوات والشبهات، ونزغات الشيطان ووساوسه.

وذلك أن الله سبحانه قد خلق البشر وعندهم الاستعداد الفطري أن يكونوا عبيداً، ولا يمكنهم أن يتخلصوا من رق العبودية بحال من الأحوال. وأمر من اثنين: إما أن يكون الناس عباداً لله سبحانه وتعالى وحده، وإما أن يكونوا عبيداً لغير الله تعالى.

ولقد بينت آيات القرآن طوائف العباد في هذا الشأن، وذكرت بأن هناك طائفة من الناس قد أحسنت العبودية لربها سبحانه فأثنى عليها المولى سبحانه وتعالى في كتابه. ومن هذه الطائفة الأنبياء حيث مدحهم بأنهم عباد لله سبحانه وتعالى وحده، وما اختارت لهم آيات القرآن وصفاً يمدحون به أفضل من وصف العبودية

(١) الوابل الصيب صـ١٦ .

لله سبحانه، فهي أعلى درجة واسمى مكانة وأرفع منزلة من الممكن أن يصل إليها إنسان ،حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص: ١٧] ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص: ٣٠]. ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

وكلما ازداد إخلاص العبد في مقام العبودية لربه -سبحانه- رقت مكانته وارتفعت درجته ومنزلته ، وأصدق مثال على ذلك مقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في رحلة الإسراء والمعراج، حيث يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء ١].

واستمرت الرحلة وعُرِج برسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى وصل إلى سدرة المنتهى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[النجم: ٨-١٠]. فكأن هذه الصفة التي تحققت في شخص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أكمل وجه هي التي أهلته -صلى الله عليه وسلم- لأن يرقى إلى تلك الدرجة التي لم يصل إليها أحد من البشر سواه .

هذا من جانب، ومن جانب آخر يبين لنا المولى سبحانه بأن هناك فريقاً من الناس لا سبيل للشيطان إليها، ولا قدرة له على إغوائها ، أو إضلالها ، وهم عباد الله المخلصون، هذه الفئة هي التي قال عنها المولى سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

وبالإضافة إلى ذلك ففي المعركة الدائرة بين الإنسان والشيطان، والتي أذن فيها المولى سبحانه للشيطان أن يستخدم كل ما عنده، وأن يهجم على الإنسان بكل قوته، حيث يقول سبحانه: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

لقد أطلق الحق سبحانه يد الشيطان لتعبث مع البشرية كما تشاء، وليستخدم الشيطان كل طاقاته وقدراته، ويحرك جيوشه، ويهاجم بخيله ورجاله، فله أن يفعل كل هذا، ولكن في الوقت ذاته ينبئنا المولى سبحانه بأن هناك فئة من العباد استعصى أمرها على الشيطان فلا سبيل له إليها ولا قدرة عنده على النيل منها إنهم عباد الله تعالى حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥].

بل إن الشيطان نفسه قد أيس من إضلال هذه الفئة أو إغوائها، واعترف بأنه لن يمكنه أن ينال منها، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[ص: ٨٢، ٨٣].

فعلى قدر إخلاص العبد في تحقيق هذه العبودية لربه -سبحانه- يحيا عزيزاً قوياً آمناً مطمئناً، سالماً معافى ، فهو عبد لمن بيده ملكوت السماوات والأرض، ومن إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

ولكن إذا ما تمرد الإنسان على هذه العبودية، وأبى واستكبر واستنكف أن يكون عبداً لربه ، وقع في صور من العبودية كلها خزي وذل وانكسار وصار عبداً بين العبيد -وذكرنا من قبل كلام الراغب الأصفهاني في الفرق بين العباد والعبيد- فمن هذه الصور:

من كان فيها المرء عبداً لنفسه وهواه وفيه يقول الحق سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣]. فتجد الكثير من الناس عبيداً للشهوات والمتعة واللذة الحسية، هدف أحدهم من حياته إشباع شهوة بطنه وفرجه ، واللهث وراء الغدرات والفجرات، فتراهم وقد قصروا حياتهم على هذا الأمر، وجعلوا حياتهم وقفاً على ذلك، ولا تتعداه إلى غيره، فهم قوم لا يؤمنون بالله تعالى ولا باليوم الآخر.

ومنهم من كان عبداً للشيطان يقول الحق -سبحانه- :﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

فهذا فريق من الناس قد اتخذ الشيطان له رباً وإلهاً يعبده من دون الله سبحانه وتعالى وحده ، ولقد عُبد الشيطان قديماً وحديثاً ، وعلى مدار التاريخ وعادت للظهور من جديد فئة عرفت في هذا العصر بأنهم عبدة الشيطان .

ومنهم من انحرف في تفكيره بصورة أشد فصار يعبد الكواكب والنجوم أو يعبد الأحجار والأوثان أو يعبد الأبقار والدواب، حيث يقول فيهم المولى سبحانه: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧١].

ومن صور العبودية لغير الله تعالى ما بينها لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وَسَلَّمَ- تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ (١).

وهي صورة من صور العبودية غير واضحة المعالم بالنسبة لكثير من الناس فتراهم يدعون بأنهم يعبدون الله سبحانه وتعالى وحده ، ولكن حقيقة الأمر أن حب الدرهم والدينار قد استحوذ على قلوبهم وسيطر على مشاعرهم وأحاسيسهم ، وصار هو الشغل الشاغل لهم في هذه الحياة الدنيا، وصار جمع المال وكثره هو الغاية التي يحيون من أجلها ويموتون في سبيلها . وعبد القطيفة أو عبد الخميصة هو من

(١) البخاري . كتاب الرقاق . حديث رقم ٥٩٥٥.

يجعل المظهر والهيئة والصورة التي يكون عليها الغاية التي يعيش من أجلها ولا هدف له في الحياة سواها.

فهذه صور من العبودية لغير الله تعالى يعمل الشيطان جاهداً على أن يوقع فيها بني آدم حتى يكونوا وقود النار يوم القيامة.

وحتى ينقذ العبد نفسه من الهلاك وينجي نفسه من النار ومن عذابها ينبغي أن يخلص العبودية لله وحده، وألا يكون عبداً لغير مولاه، فلا يكون عبداً لشيطان، أو عبداً لصنم أو لسلطان أو عبداً لامرأة أو لمنصب أو جاه ، أو غير ذلك من حطام الحياة الدنيا.

فإذا ما أخلص المرء العبودية لمولاه أيس منه الشيطان، وما عاد له من سبيل لإغوائه أو إغرائه أو خداعه بأي صورة من الصور ، ولقد اعترف الشيطان بذلك حيث يقول الحق على لسان الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

الثالثة : الاستمساك بالكتاب والسنة:

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: أعظم سبيل للحماية من الشيطان هو الالتزام بالكتاب والسنة علماً وعملاً، فالكتاب والسنة قد جاءا بالصراط المستقيم، والشيطان يجاهد كي يخرجنا عن هذا الصراط قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد شرح لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وَسَلَّمَ خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ سُبُلٌ قَالَ يَزِيدُ:مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ

سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ قَرَأَ (إِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) *[1].

فاتباع ما جاءنا من عند الله من عقائد وأعمال وأقوال وعبادات وتشريعات، وترك كل ما نهى عنه، يجعل العبد في حرزٍ من الشيطان ، ولذلك قال الله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[البقرة: ٢٠٨].

والسلم : هو الإسلام . وقيل طاعة الله، وفسره مجاهد بأنه العمل بجميع وجوه البر، وعلى ذلك فقد أمرهم بالعمل بجميع شعب الإيمان، وشرائع الإسلام ما استطاعوا، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، فالذي يدخل في الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته، والذي يترك شيئاً من الإسلام فقد اتبع خطوات الشيطان، ولذلك كان تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، أو أكل المحرمات والخبائث، كل ذلك من اتباع خطوات الشيطان التي نهينا عنه[2]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

يقول صاحب الظلال: (إنها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان. بهذا الوصف المحبب إليهم والذي يميزهم ويفردهم ويصلهم بالله الذي يدعوهم.. دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة..

وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله في ذوات أنفسهم وفي الصغير والكبير من أمرهم. أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور ومن نية أو عمل ، ومن رغبة أو رهبة لا تخضع لله ولا

(١) المسند للإمام أحمد بن حنبل . مسند المكثرين من الصحابة حديث رقم ٣٩٢٨ .

(٢) عالم الجن والشياطين . د . عمر سليمان الأشقر ص ١٤٤ .

ترضى بحكمه وقضاه. استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية. الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد، وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير في الدنيا والآخرة سواء.

ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة.. حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان. فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان. إما الدخول في السلم كافة وإما اتباع خطوات الشيطان. إما هدى وأما ضلال. إما إسلام وإما جاهلية. إما طريق الله وإما طريق الشيطان. وإما هدى الله وإما غواية الشيطان.. وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات)[1].

وخلاصة الأمر في هذه النقطة أن على المسلم أن يلتزم بالقرآن والسنة قولاً وعملاً ، قلباً وقالباً ، حتى يعصم نفسه من كيد الشيطان، ومعنى ذلك : أن عليه أن يأخذ بالإسلام من جميع جوانبه، وفي جميع شؤون حياته فيما يحب ويكره، فيما يرضيه وما لا يرضيه، وألا يأخذ ما يعجبه ويكون على هواه ويترك ما لا يعجبه ولا تستسيغه نفسه، فإن الإسلام كلٌ لا يتجزأ ولا يكون العبد مسلماً حقاً إلا إذا أخذ به كذلك، وأخذ بحكم الإسلام في كل شأن من شؤونه، في شأنه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والأخلاقي، ولا يأخذ بعضه ويترك بعضه، فإن من يصنع ذلك ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥، ٨٦].

(١)في ظلال القرآن . سيد قطب ١/ ٢٠٧ ط. دار الشروق بتصرف .

فهذا حال من يأخذ ببعض فرائض هذا الدين ويترك بعضها، فيأخذ بفريضة الصلاة مثلاً ويترك فريضة الزكاة ، أو يأخذ من الإسلام جانبه التعبدي ويترك بقية الجوانب الأخرى كالجانب الاقتصادي والسياسي والأخلاقي بحجة أنه لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة.

ولقد بين رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن هذا الدين لا ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه، وأن الشيطان ينتقص من دين المرء ويرضى بهذا الانتقاص، وإن كان ما ينتقصه شيئاً قليلاً وهو على يقين بأن هذا القليل سيحقق له ما يريد ويصل من خلاله إلى ما يحب فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وَسَلَّمَ يَقُولُ:(إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)[1] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ مِنْكُمْ بِمَا تَحْقِرُونَ *)[2]

ولهذا فلا يسلم للمسلم دينه وعقيدته إلا إذا أخذ بالإسلام بصورة كاملة ولا يفرط في شيء من تعاليمه ، قلّ أم كثر حتى يسد على الشيطان منافذه ويقطع عليه طريقه ولا يجد الشيطان ثغرة أو منفذاً ينفذ من خلاله إلى حياة العبد المسلم فيصنع معه ما يريد.

وبالإضافة إلى ذلك فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وهي بمثابة وعاء إن تركته فارغاً امتلأ بالجراثيم والميكروبات والحشرات الضارة والمؤذية، فلا بد أن يأخذ المرء الأمر مع نفسه مأخذ الجد وأن يعمل على تزكيتها بالفضائل

(١) مسلم . كتاب صفة القيامة والجنة والنار . حديث رقم ٥٠٣٠ .

(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل .باقي مسند المكثرين حديث رقم ٨٤٥٤ .

وتحليتها بالعمل الصالح وألا يترك في حياته لحظة فراغ يستغلها الشيطان استغلالاً سيئاً، وتكون مدخله للسيطرة على النفس وجرها إلى ما يريد.

الرابعة : الإخـــــلاص

حقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله تعالى. وأن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى ، فيقصد بعمله وجه ربه –سبحانه– وأن يكون شأنه كما أخبر الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ*قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٤].

ويعتبر الإخلاص إحدى الحصون التي يستعصم بها العبد حتى يحفظ نفسه من الشيطان وكيده، وهو سبيل الخلاص من سيطرة الشيطان وهذا باعتراف الشيطان نفسه حيث يقول الحق –سبحانه– على لسان الشيطان :﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر ٣٩، ٤٠].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وَسَلَّمَ– فَقَالَ : أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَالَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وَسَلَّمَ– لَا شَيْءَ لَهُ فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وَسَلَّمَ– لَا شَيْءَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ)*[1]

(١)سنن النسائي . كتاب الجهاد . حديث رقم ٣٠٨٩ . قال ابن حجر في فتح الباري إسناده جيد

فينبغي على العبد أن يتفقد أحواله قبل العمل وأثناءه وبعده لينظر: هل دافعه إلى العمل هو إرادة وجه الله تعالى فقط أم هناك دافع آخر في حظوظ النفس وأهوائها .

وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء، ولقد بين الإمام الغزالي طريقة الشيطان في إفساد العمل على العبد ومراحل هذا الإفساد وخطواته فيقول رحمه الله تعالى: (إن الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته؛ ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك! فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر؛ وهي الدرجة الأولى.

الدرجة الثانية: يكون العبد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان. فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك، وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة! وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو أيضاً عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؟ فهذا محض التلبيس، بل المقتدي به هو الذي في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه ، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها، أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن

الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضاً كذلك، فهذا أيضاً من الرياء الغامض لأنه حسّن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق .

بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلا والملا وهيهات! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملأ جميعاً، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملأ والخلا جميعاً، وهذا من المكايد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستح من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ، ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سبباً فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفي في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، كما ورد في الخبر ولا يسلم من الشيطان إلا

من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى ،لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حد الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص. (١)

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قلَّ أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه ولذلك كان الإخلاص من أشد الأعمال وأصعبها، ولا يكون هذا سبباً في ترك العمل فإن ذلك هدف الشيطان وغايته بل يجب أن تجتهد في تنقية العمل، ولا تتركه خوف الرياء كما قال الفضيل بن عياض -رحمه الله تعالى-: ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما. (٢)

وخلاصة الأمر في هذا أن يدقق المرء النظر في نيته وقصده وعمله فيصفيه من كل ما يفسده من الرياء ، ويجعه لله خالصاً .

الخامسة : التوبة النصوح (٣)

إن الشيطان يُخطط ويُدبر ويُحكم التخطيط والتدبير حتى يسقط بنى آدم في شباكه ويوقعه في حبائله ومكائده، ومن الممكن أن يقضي السنوات الطوال في إغواء العبد وإضلاله، وقد يخدع كثيراً من العباد حتى يوقعهم فيما يريد ،

---

(١) إحياء علوم الدين ص ٢٧٢٠ .باختصار

(٢) المرجع السابق باختصار .

(٣) معنى النصوح التوبة الخالصة لله تعالى ، أو التوبة المحكمة التي لا خلل فيه ولا نقص.

ويستدرجهم ويغرر بهم ، حتى يصل بهم إلى ما يريد، وبعد أن يطمئن الشيطان إلى عمله ، ويضمن أن هذا العبد قد صار من أتباعه وواحداً من حزبه يفاجأ الشيطان من العبد بأمر لم يتوقعه ألا وهو أن هذا العبد قد تاب وأناب إلى الله سبحانه فكأن العبد بذلك قد قلب المائدة على رأس الشيطان وذهبت جهود الشيطان أدراج الرياح.

وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى على عباده ومن رحمته بهم أن فتح أمامهم باب التوبة على مصراعيه وطالبهم بأن يثوبوا إليه ويرجعوا وقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقال -سبحانه- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

إن التوبة النصوح والرجوع الكامل إلى الله تعالى بمثابة اقتلاع لغرس غرسه الشيطان وأجهد نفسه في غرسه، وأمضى من أجل ذلك الكثير من الوقت ، وبذل الكثير من الجهد في التزيين والوسوسة والإغراء والإغواء والخداع والتضليل ، فيضيع العبد على الشيطان كل هذا الجهد وهذا العمل بتوبته وإنابته لله.

إن المؤمن ينبغي أن يكون حريصاً أشد الحرص على أن يطهر قلبه وينقي صدره دائماً من غرس الشيطان، وكلما اجتهد الشيطان وتحايل حتى يغرس في قلبه شجرة خبيثة اقتلعها العبد بتوبته وإنابته فيضيع على الشيطان جهده ، ويبدد عليه سعيه وعمله. وهذا شأن العبد المؤمن مع ربه -سبحانه-

إن نفس الشيطان تتقطع حسرات وهو يرى هذا ، حيث يرى سعيه وجهده قد ضاع هباءً منثوراً، وتزداد حسرته ، أكثر حينما يرى هذا العبد التائب وقد

أفلت من قبضته ، وخرج من تحت سيطرته وهيمنته ، وكان يظن بأنه قد ضمه إلى حاشيته وصار واحداً من حزبه وأتباعه، وتزداد به الحسرة والندم حينما يجد رحمة الله تعالى ، وقد تغمدت هذا العبد التائب وبدلت سيئاته حسنات.

ولكن هذا من فضل الله على عباده، ومن رحمته بهم أن فتح أمامهم هذا الباب من التوبة والإنابة والرجوع ليكون هذا عوناً لهم على مواجهة كيد الشيطان والدخول في عفو الله ورحمته وإحسانه.

السادسة : لزوم جماعة المسلمين

الجمع: ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، يقال: جمعته فاجتمع[1].

والمقصود بها ضم العناصر الصالحة بعضها إلى بعض حتى تتألف منهم جماعة المسلمين ، وهذا بحث طويل ليس هذا موضعه ولكن نعالج هنا منه ما يتناسب وموضوعنا هذا فى النقاط التالية:

أثر لزوم في مواجهة كيد الشيطان : إن الالتزام بالجماعة الصالحة من الأمور التي يندحر منها الشيطان ويخسأ فهي تضيع عليه الكثير من عمله ، وتفشل الكثير من خططه ، ويظهر المجتمع المسلم من خلاله ترابطه وتماسكه كالصخرة الصماء التي تتكسر وتتحطم عليها كل ما يحرص عليه الشيطان من أجل تحقيق أهدافه. فمن أراد أن يحفظ نفسه من الشيطان وكيده فعليه بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، ولقد قال –صلى الله عليه وسلم–:

(عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ)[2].

وإن على العبد المسلم أن يحرص على الجماعة، حتى ولو كان في سفر فلا يسافر وحده وإنما يصطحب معه من يعينه في سفره ، ويكون عوناً له على طاعة ربه

(١) مفردات ألفاظ القرآن (نسخة محققة) للراغب الأصفهاني ١/١٥٤ ط دار القلم دمشق .
(٢) سنن الترمذي . كتاب الفتن . حديث رقم ٢٠٩١.

وزجراً للشيطان أن يضله ولقد قال –صلى الله عليه وسلم– الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ [1].

وفي حديث آخر عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلم قَالَ : لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ *[2].

وحتى في أثناء السفر ومراحل الطريق ينبغي أن ينضم بعضهم إلى بعض ولا يتحركوا أو يجلسوا وهم متفرقين ، فإن هذا التشتت والتفرق من الشيطان فعن أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ قَالَ : كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلًا قَالَ عَمْرٌو كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم مَنْزِلًا تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى يُقَالَ لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ * [3].

من جانب آخر فإن أركان الإسلام وشعائره لا تؤدى على الوجه الأكمل إلا من خلال الجماعة فالصلاة لا تتم على وجهها الأكمل إلا إذا كانت في جماعة ، والزكاة في جمعها وتحصيلها وتوزيعها لمن يستحقها لا يتم هذا إلا بعمل جماعي ، الحج الأكبر ، أكبر تجمع سنوي يجمع المسلمين من شتى بقاع العالم في مؤتمر سنوي حاشد ، وما في مثل هذا الجمع من دحر للشيطان ، والجهاد والحرب والقتال عمل لا يمكن للفرد أن يقوم به منفرداً بحال من الأحوال . فإذا ما علمنا بأن من أهداف الشيطان أن يضيع على العبد المسلم فرائضه ويضيع معها دين المرء ، فالقيام بأركان الإسلام وشعائره فى صورة جماعية هي أفضل وسيلة للتغلب على كيد الشيطان .

(١)سنن الترمذي . كتاب الجهاد . حديث رقم ١٥٩٧ .
(٢) البخاري . كتاب الجهاد والسير . حديث رقم ٢٧٧٦ .
(٣) سنن أبي داود . كتاب الجهاد . حديث رقم ٢٢٥٩.

من هنا كان هذا التأكيد الشديد من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ألا يفارق المسلم جماعة المسلمين فتارة يبين لهم أن المفارق للجماعة كأنه خلع ثوب الإسلام من عنقه فيقول: " من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه [١] (الربقة : العروة في الحبل) وكذلك ما روى البخاري في صحيحه عن أبي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ:

كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي. فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ.قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ: نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا.قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا.فَقَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا. قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ ؟قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ*[٢]".

بهذا كان يوصيهم صلى الله عليه وسلم لعلمه ما للجماعة من الأهمية في إزالة الباطل.

ولقد أكد على هذا المعنى أحاديث أخرى حيث يقول -صلى الله عليه وسلم-:(عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ)[٣]*

(١) سنن الترمذي . كتاب الأمثال ٢٧٩٠ .
(٢) البخاري . كتاب المناقب . حديث رقم ٣٣٣٨ .
(٣) سنن الترمذي . كتاب الفتن حديث رقم ٢٠٩١ .

(يَقُولُ مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ)*[١]

(اثْنَانِ خَيْرٌ مِنْ وَاحِدٍ وَثَلَاثٌ خَيْرٌ مِنَ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعَةٌ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يَجْمَعَ أُمَّتِي إِلَّا عَلَى هُدًى[٢] *

(إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ)[٣] *

والالتزام بالجماعة يقتضي أمران: الأول: الالتزام بالجماعة اعتقاداً، وهو أن تكون عقيدتك كعقيدة الجماعة الأولى جماعة السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن نهج نهجهم وسار على طريقهم. وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك.

الثاني: الالتزام بالجماعة صفاً. وهو أن تكون بقلبك وقالبك مع أهل الحق أينما كانوا وحيثما كانوا. وأهل الحق هم الذين قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ * [٤]

السابعة :عدم الغفلة عن ذكر الله تعالى

إذا كان الشيطان عدو لا يُرى ولا يُسمع ولا يُحس، وعنده المقدرة أن يخترق عليك الجدران وأن يسري في العروق مع الدماء، إذا كانت هذه بعض قدراته وإمكاناته فلقد زود الحق سبحانه بني آدم بوسيلة تذهب كيد الشيطان، وتبطل

(١) سنن النسائي . كتاب الإمامة حديث رقم ٨٣٨ .
(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل . مسند الأنصار . حديث رقم ٢٠٣٣١.
(٣)المسند للإمام أحمد بن حنبل . مسند الأنصار . حديث رقم ٢٠٢١٠ .
(٤) البخاري . كتاب فرض الخمس . حديث رقم ٢٨٨٤.

سحره، وتحبط تدبيره وتخطيطه ألا وهي ذكر الله تعالى، فإن ذكر الله تعالى وسيلة من أنجح الوسائل في محاربة كيد الشيطان ، وذلك لأسباب كثيرة على رأسها:

– إن الشيطان يذوب من ذكر الله تعالى ويفر من كلمة الله أكبر ولقد جعل الحق سبحانه الكثير من الأذكار والأوراد والأدعية والآيات حصناً وحفظاً وحماية من الشيطان وكيده، وهناك الكثير من الآيات جعلها المولى سبحانه حصناً حصينا من الشيطان ومكائده منها ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنْهم قَالَ وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فَقَالَ : إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ *(١)

ولا يزال العبد في حصن حصين من الشيطان وكيده طالما كان على ذكر لله تعالى فإذا ما غفل عن ذكر الله استولى عليه الشيطان ففي الحديث:

... وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ(٢)

ويقول ابن القيم(٣) فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة فهو يرصده، فإذا غفل، وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله

(١) البخاري . كتاب بدء الخلق . حديث رقم ٣٠٣٣ .
(٢) سنن الترمذي . كتاب الأمثال . حديث رقم ٢٧٩٠ .
(٣) الوابل الصيب ص ٦٠ .

وتصاغر وانقمع حتى يكون مثل الوصع طائر أصغر من العصفور، وكالذباب، ولهذا سمي (الوسواس الخناس) لأنه يوسوس في صدور الناس فإذا ذكر الله خنس، أي كف وانقبض.

ويقول ابن القيم أيضاً: الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه، فما ظنك برجل قد احتوشته أعداؤه المحنقون عليه غيظاً، وأحاطوا به، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عزّ وجل.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ *(١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنْهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ *(٢)

ومن هنا فإن الشيطان يحرص أشد الحرص على أن ينزع هذا السلاح من الإنسان ، وأن يجرده منه كي يمكنه أن يسيطر عليه بعد ذلك، وأن يفعل به ما يشاء، ويتحقق هذا حينما يسيطر الشيطان على قلب العبد ويستولي على كيانه كله، فيستسلم له العبد استسلاماً تاماً وينقاد له انقياداً كاملاً، فيتحرك في حياته

(١) سنن أبي داود . كتاب الأدب . حديث رقم ٤٤٣١ .
(٢) البخاري . كتاب بدء الخلق . حديث رقم ٣٠٥٠ .

ويزين له السوء. وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب، كما قضاه الله في علمه.

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون: (وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون)..

وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرينه. أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة، ثم لا يدعه يفيق، أو يتبين الضلال فيثوب، إنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم ! حتى يصطدم بالمصير الأليم. والتعبير بالفعل المضارع: (ليصدونهم).. (ويحسبون).. يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار، يراها الآخرون، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون.[1] !

والإنسان متى ما تذكر الله وشعر أنه مراقبه في كل حركة وهمسة ومتى ما تذكر أنه مكشوف أمام الله سره وعلانيته وأنه قادر على أن يهلكه متى شاء، وأيقن ذلك في قلبه يكون من الصعب أن يعصيه... وعندما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" لدلالة واضحة على أن الزاني حين يزني ينسى أن هناك رقيبا يرقبه وكاتبا يكتب ما يفعل، ينسى أن عليه من بيده هلاكه فلذلك تنتفي صفة الإيمان عنه في تلك اللحظات، وكذلك حال السارق وشارب الخمر.

إذن هو ذلك النسيان الذي يسبب الشقاء الأبدي في نار جهنم ومسببه هو عدو الله إبليس وهو من أكبر مداخله على ابن ادم ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، والدواء لهذا الداء هو ذكر الله على كل حال فيه ينتصر أصحاب الحق،

(١)في ظلال القرآن . سيد قطب ٣١٨٩/٥ط. دار الشروق .

وفق ما يريد منه الشيطان، ويبين هذا المعنى الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

لقد سيطر عليهم الشيطان سيطرة تامة وتمكن منهم بصورة كاملة فجردهم من هذا السلاح الرباني ونزع منهم هذا السيف الإلهي فانقطعت صلتهم بالله تعالى وغفلوا عن ذكره، وما عاد لذكر الله في حياتهم موضع، فصاروا من حزب الشيطان ومن جنده المنفذين لأوامره المنقادين لتوجيهاته، ولم يقتصر أمرهم على حد ضلالهم في أنفسهم بل صاروا جنود الشيطان وأعوانه وحزبه:{أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ}.

أضف إلى ذلك أن العبد إذا ما غفل عن ذكر ربه سبحانه وتعالى استولى عليه الشيطان وسيطر عليه وتمكن منه يفعل به ما يشاء ويوجهه حيثما يريد، ويصير العبد ساعتها ألعوبة في يد الشيطان، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [الزخرف:٣٦-٣٧].

يقول صاحب الظلال في تفسير هذه الآية:

والعشى كلال البصر عن الرؤية، وغالباً ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذي لا تملك العين أن تحدق فيه، أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله. وقد يكون ذلك لمرض خاص. والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته في الضمير. (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين)..

وقد قضت مشيئة الله في خلقة الإنسان ذلك. واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه، ويصبح له قرين سوء يوسوس له،

وبدونه يهزم أصحاب الحق، وهو السبب الذي أنقذ الله به نبي الله يونس عليه السلام من بطن الحوت وإلا لمكث في بطن الحوت إلى ما يشاء الله.

وكل جماعة معرضة لذلك الانتكاس، وكل داعية إلى الله معرض للانتكاس متى نسي ذكر الله، وبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.[1]...

الثامنة: حفظ الجوارح والحواس:

إن من أعظم الأساليب للوقاية من كيد الشيطان حفظ السمع والبصر والفؤاد، وذلك لأن الشيطان يجر الإنسان من خلال حواسه وجوارحه، ويجعلها طريقه للسيطرة على الإنسان، فبها ومن خلالها يصنع مع الإنسان ما يريد، ولننظر إلى حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذا فهو يوضح لنا جانباً من هذه الصورة فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وَسَلَّمَ قَالَ: لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ مِنَ الزِّنَا فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبَلُ وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ *[2].

من خلال هذا الحديث نرى بأن للعين حظها ولليد نصيبها وللقدم وللفم والفرج دوره ونصيبه في إتمام جريمة الزنا فلقد استطاع الشيطان أن يوظف حواس المرء وجوارحه حتى أوقعه فيما يريد، فمن أجل أن يعصم المرء نفسه من كيد الشيطان لا بد له أن ينتبه إلى حواسه وجوارحه فلا يجعلها وسيلة الشيطان ليصل من خلالها إلى ما يريد، فالمسلم في حاجة إلى أن يحفظ سمعه وبصره ولسانه وفؤاده خاصة ، وقد حذره المولى سبحانه في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ

(١) البيان في مداخل الشيطان ص ٧٨ .

(٢)المسند للإمام أحمد بن حنبل . باقي مسند المكثرين حيث رقم ٨١٧٠ .

وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء:٣٦].وهذا الإجمال يحتاج إلى تفصيل، وتفصيله على النحو التالي:

أولا: حفظ البصر:

إن إطلاق البصر من أعظم مداخل الشيطان: ولذا كان غض البصر قاصماً لظهر الشيطان مبطلاً لسعيه مفشلاً لخططه قاطعاً لطمعه في ابن آدم، يقول ابن القيم: إن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب والانشغال به، والفكر في الظفر به.

فمبدأ الفتنة من فضول النظر كما المسند عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَوَّلَ مَرَّةٍ ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلَّا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا[1]

فالحوادث العظام إنما هي من فضول النظر. فكم من نظرة أعقبت حسرات لا حسرة.

كما قال الشاعر:

كل الشرور مبدؤها من النظـر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبهـا ... في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسـر ناظره ما ضر خاطـره ... لا مرحبـا بسرور جاء بالضرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر[2]

ولما كان الكثير من الشرور والمخاطر مصدرها من النظر، وكان النظر في أحايين كثيرة جالباً للمخاطر والمهلكات فلقد حذر الرسول -صلى الله عليه وسلم- من إطلاقه وأمر بغضه وقال: (يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ)[3]

(١) المسند للإمام أحمد بن حنبل .باقي مسند الأنصار حيث رقم ٢١٢٤٧.

(٢)التفسير القيم ص٦٢٥ .

(٣)سنن الترمذي . كتاب الأدب . حديث رقم ٢٧٠١ .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وَسَلَّمَ قَالَ لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ مِنَ الزِّنَا فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلَانِ يَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبَلُ وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ *[1]

وإن العين هي النافذة إلى القلب ، ومن خلالها وعن طريقها تتحرك الجوارح وتثور الشهوات فمن أطلق لعينيه العنان في النظر إلى الغاديات الرائحات والتطلع إلى الكاسيات العاريات فلا يأمن على نفسه عواقب هذا النظر من الثورة العارمة التي تجتاح قلبه ومشاعره، بل لا يأمن من الوقوع في المحظور والسقوط في مستنقع الرذيلة والفاحشة، فالنظرة هي الخطوة الأولى في طريق الفحشاء كما يقول البعض: نظرة فابتسامة فموعد فلقاء فغرام ما لم يقله فجريمة زنا لأنه ما بقي بعد ذلك إلا جريمة الزنا ، ولذلك أمر الله المؤمنين والمؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج حيث يقول سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١] .

ويعلق على ذلك صاحب الظلال فيقول : إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تماج فيه الشهوات في كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في

(١)المسند للإمام أحمد بن حنبل . باقي مسند المكثرين حيث رقم ٨١٧٠ .

كل حين. فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفئ ولايرتوي. والنظرة الخائنة والحركة المثيرة والزينة المتبرجة والجسم العاري... كلها لا تصنع شيئا إلا أن تهيج ذلك السعار الحيواني المجنون ! وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة. فإما الإفضاء الفوضوي الذي لا يتقيد بقيد وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة ! وهي تكاد أن تكون عملية تعذيب !!!

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هي الحيلولة دون هذه الاستثارة وإبقاء الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليما وبقوته الطبيعية دون استثارة مصطنعة وتصريفه في موضعه المأمون النظيف[1].

ونخلص من هذا إلا أنه على المسلم أن يغض بصره عن المحارم وعن الأجنبيات من النساء وأن يغلق هذه النافذة أو تلك البوابة التي يفتحها عليه الشيطان إلى جهنم، وحتى يسلم للمرء دينه وعرضه وينبغي أن يعود نفسه غض البصر حتى يكون غضه لبصره خلقاً وسجية وعادة لا تفارقه بحال من الأحوال، فإذا ما اعتاد المسلم ذلك وصار له خلقاً فقد أغلق هذه البوابة وفوت على الشيطان فرصة أن يأتيه من هذه الجهة أو يجره من خلال هذه الجارحة.

ثانيا: حفظ اللسان:

يقول ابن القيم: وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها ، وكم من حرب جرها كلمة واحدة ، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ :(أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّه قُلْتُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّه فَأَخَذَ بِلِسَانه قَالَ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّه وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِه فَقَالَ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)[2].

(١)في ظلال القرآن . سيد قطب ٢٥١٢/٤ط. دار الشروق .

(٢)سنن الترمذي . كتاب الإيمان . حديث رقم ٢٥٤١ .

وأكثر المعاصي إنما يولدها فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الأطراف كثيرة الشعب، عظيمة الآفات [1]

حفظ البطن عن أكل الحرام:

وذلك بأن يحفظ نفسه عن أكل المال الحرام بكل أنواعه وأشكاله وألوانه فيحفظ نفسه عن الربا والرشا والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل وأكل مال اليتيم وكل مال من المال الحرام فينبغي للمسلم أن يحفظ نفسه عنه فأكله لهذه الأموال وسيلة من الوسائل التي تعين عليه الشيطان وتمكنه منه . فالنسبة للربا مثلا يقول الله تعالى:

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾[البقرة:٢٧٥-٢٧٦].

عَنْ جَابِرٍ قَالَ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم : {آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ}[2].

وعن الرشوة جاء هذا الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ فِي الْحُكْمِ *[3]

(١)التفسير القيم ٦٢٧ .

(٢) مسلم . كتاب المساقاة . حديث رقم ٢٩٩٥ .

(٣) سنن الترمذي . كتاب الأحكام . حديث رقم ١٢٥٦ .

أما عن أكل مال اليتيم فلقد قال المولى سبحانه:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

وعده رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إحدى الموبقات السبع ومن كبائر الذنوب فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلم قَالَ اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ *[1]

من خلال هذه الأحاديث نرى بأن أكل المال الحرام بأي طريقة كانت يعتبر إحدى وسائل الشيطان للسيطرة على ابن آدم وجره إلى نار جهنم فآكل الربا لا يقوم من موضعه إلا كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ وإن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه ملعونون بلعنة الله تعالى مطرودون من رحمته سبحانه وتعالى.

بل إن كل لحم نبت من سحت أو نبت من مال حرام فالنار أولى به فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم قَالَ : (يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ إِنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ) *[2]

وفي رواية أخرى: يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ[3].

بل إن أكل المال الحرام مانع من إجابة الدعاء وقبول القربات والعبادات فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلم أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا

(١) البخاري . كتاب الوصايا . حديث رقم ٢٥٦٠ .

(٢) سنن الدارمي . كتاب الرقاق . حديث رقم ٢٦٥٧ .

(٣) سنن الترمذي . كتاب الجمعة . حديث رقم ٥٥٨ .

مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ *[1].

ومن جانب آخر فإن أكل المال الحرام يجرئ على كثير من المعاصي والكبائر والموبقات وذلك لأن المعاصي تجر بعضها إلى بعض فمن اكتسب مالاً من حرام كان اليسير بالنسبة له أن يبعثر هذا المال، وأن ينفقه بسفه وإسراف وتبذير، وتجده من الهين واليسير بالنسبة له أن يبعثر هذا المال تحت أقدام العاهرات والفاجرات والراقصات بلا مبالاة، وذلك لأنه مال لم يبذل جهداً أو عرقاً في جمعه أو تحصيله فكان إنفاقه هيناً على نفسه، على عكس من اكتسب ماله من طريق حلال فإنك تجده حريصاً على هذا المال لا يبعثره ولا ينفق منه شيئاً في غير موضعه لأنه مال قد حصله بشق الأنفس فكان من الشاق والعسير على نفسه أن يبذله في غير موضعه، أو ينفقه في غير محله.

من خلال ما مضى رأينا بأن من أفضل الأساليب التي تعصم المرء من كيد الشيطان أن يحفظ سمعه وبصره وأذنه وسائر جوارحه عن اقتراف المحرمات وارتكاب المنكرات، وبدلاً من أن تكون هذه الجوارح والحواس أداة في يد الشيطان يستخدمها في إغواء بني آدم ويجره من خلالها إلى ما يريد بدلاً من ذلك فإن المرء حينما يحفظ سمعه وبصره وسائر جوارحه يسد هذه المنافذ على الشيطان ويفوت عليه الفرصة أن يستخدمها الشيطان فيما يريد، ويوظف المسلم هذه الجوارح في عمل صالح يقربه إلى الله زلفى، ويقدم بها عملاً صالحاً ترفع به درجته، ويغفر بها ذنبه ويستر بها عيبه، وتكفر بها خطاياه وآثامه وذنوبه.

---

(١) مسلم كتاب الزكاة . حديث رقم ٩٦٨٦ .

ومما يعين العبد على حفظ حواسه وجوارحه عن فعل الحرام وارتكاب الموبقات أن يعلم بأن هذه الجوارح نعمة ربه عليه التي أنعم بها عليه وتفضل بها عليه بلا مقابل ولم يطالبه المولى سبحانه بثمن لها أو إيجار نظير استخدامها كل ما طالبه به المولى سبحانه أن يوظف هذه الجوارح في طاعة ربه وألا يستخدمها في معصيته فليس من اللائق حينئذ أن تكون هذه الجوارح في يد العبد وسيلة لمعصية الله تعالى فهذا كفران للنعم وجحد ونكران للجميل.

إن تذكر العبد لمثل هذا الموقف كفيل بأن يردعه عن كثير من المحرمات، ويزجره عن ارتكاب الفواحش والموبقات. وألا ينساق وراء شيطانه، أو يندفع خلف أهواءه ورغباته وشهواته.

من تتمة البحث :

رأيت من تتمة هذا البحث معالجة هذه القضايا الثلاث :

١-إن كيد الشيطان كان ضعيفاً .

٢-الحكمة من خلق الشيطان .

٣-الحكمة في بقاء إبليس إلى آخر الدهر . فكان الحديث فيها على النحو التالي :

١-إن كيد الشيطان كان ضعيفاً

قد يقول قائل: ما هي أقصى طاقة يملكها الشيطان ؟ وما هي قدراته في الإغواء والإضلال ؟ ترى هل لدي الشيطان قدرات غير عادية وإمكانات خارقة للعادة ؟ هل يملك الشيطان من القوة والقدرة ما يمكنه من أن يجبر الإنسان على أمر لا يريده ، أو أن يُكرهه على فعل لا يتمناه ؟ هل يستطيع الشيطان فعل ذلك، أو يقدر على هذا ؟. خاصة وأن الكثيرين ممن أسرفوا على أنفسهم وساروا في طريق الشيطان يحاولون أن يجدوا لأنفسهم مبرراً لمعاصيهم وآثامهم بادعاء أن

الشيطان قد أجبرهم على هذا، وأنهم ما عادوا يستطيعون الفكاك من أسره أو الخلاص والهروب من شباكه وحبائله.

هل هم صادقون في هذا الادعاء ؟ وهل يملك الشيطان من المقدرة أن يجعل الإنسان يرتكب ذنباً رغماً عنه أو يفعل شيئاً خارجا عن إرادته.

إن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده رحمة واسعة، ومن واسع رحمته أنه لم يعط الشيطان من القدرات والإمكانات ما لا يستطيع العبد التغلب عليه أو النجاة منه، فلن تجد عند الشيطان وسيلة من وسائل الإغواء والإغراء والإضلال إلا وقد أعطى الله العباد من المعارف ووسائل النجاة ما تمكنهم من التغلب على كيد الشيطان ورد كيده في نحره، وذلك حتى لا تبقى للعباد حجة عند الله سبحانه وتعالى. ويخبرنا الحق سبحانه عن ما يملكه الشيطان من القوة والقدرة فيقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[النساء:٧٦].

فلا يمكن أن يتمكن الشيطان بكيده الضعيف هذا أن يوقع العباد في ذنب لا يرغبون في فعله أو معصية لا يريدونها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر يبين لنا المولى سبحانه بأن هناك فئة من الناس لا سبيل للشيطان إليها ولا قدرة له على إغوائها أو إضلالها وهم عباد الله المخلصون هذه الفئة قال عنها المولى سبحانه ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٦٥].

ولقد جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن المعركة الدائرة بين الإنسان والشيطان والتي أذن فيها المولى سبحانه للشيطان أن يستخدم كل ما عنده وأن يهجم على الإنسان بكل قوته حيث يقول سبحانه: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾[الإسراء:٦٤].

لقد أطلق الحق سبحانه يد الشيطان لتعبث مع البشرية كما تشاء وليستخدم الشيطان كل طاقاته ويحرك جيوشه ويهاجم بخيله ورجاله فله أن يفعل كل هذا ولكن في الوقت ذاته ينبئنا المولى سبحانه بأن هناك فئة من العباد استعصى أمرها على الشيطان وهم عباد الله تعالى حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء:٦٥].

بل إن الشيطان نفسه قد أيس من إضلال هذه الفئة أو إغوائها ؛ فعلى لسان الشيطان نفسه جاء قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٣].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [إبراهيم:٤٢].

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [إبراهيم:٦٣-٦٥].

ولذلك يعلن الشيطان البراءة من اتباعه وينفض منهم يده ويتركهم يلقون جزاءهم المحتوم حيث يقول الحق -سبحانه- : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢].

إن الشيطان يعلن البراءة التامة من اتباعه في هذا الموقف بعد أن انتهى الحساب وقضى الأمر وتحددت مصائر العباد ساعتها يكشف عن أوراقه ويظهر للعباد ما كان يملكه وما يستطيعه فيبين لهم أولاً بأنه الله قد وعدهم وعد الحق -

ووعد الله الحق وعده لعباده الجنة والمغفرة في مقابل إيمانهم وجهادهم وتضحياتهم وهو المشار إليه في قول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

أما وعد الشيطان فهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ولقد جمعت آية من كتاب الله تعالى بين وعد الله سبحانه ووعد الشيطان حيث يقول سبحانه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فيبين الشيطان بأن وعد الله كان هو الوعد الحق ، أما الشيطان فقد أخلف للناس موعده : (وعدتكم فأخلفتكم) ثم يعلنها لهم صراحة ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ومعناها ما كان عندي من قدرة أو استطاعة أو سيطرة عليكم إلا مجرد دعوتكم إلى المعصية فاستجبتم لهذا الدعاء.

ودعاء الشيطان ما تجاوز نطاق الوسوسة وهي الصوت الخفي الذي يوسوس به في صدور الناس .

سبحان الله إن سلطان الشيطان كان همساً ووسوسة ما تجاوز هذا الحد أو تعداه وهذا مبلغ قوته مجرد الهمس والوسوسة ولكن ابن آدم خدع بهذا الهمس وانساق وراء صوت الشيطان هذا.

ولذلك يقول الشيطان فلا تلموني ولوموا أنفسكم لا تلقوا علي باللوم ولا تحملوني تبعة ضلالكم وكفركم ولا تقولوا بأن الشيطان قد تمكن منا وسيطر علينا وما عدنا نستطيع الفكاك منه أو الهروب من كيده لا تلموني وهذه هي منتهى قوتي

وإنما لوموا أنفسكم فهي سبب ضلالكم وهي التي أوردتكم موارد الهلاك لوموا أنفسكم لأنها هي التي كانت تحرص على الفجور وتستمرئ المعصية وتستلذ بالذنب وتستمع به ، لوموها فهي سبب ضلالكم وهلاككم فلقد كان الضلال متأصلاً في نفوسكم وكنتم على أتم الاستعداد للسير فيه وما احتجتم مني إلا مجرد إشارة وكأنكم كنتم تنظرون مني هذه الإشارة لتندفعوا في طريق الفجور إلى نهايته

فلوموا أنفسكم من أجل ذلك فهي التي أودت بكم في هذا الطريق وكانت سبباً في هلاككم بهذه الصورة (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) إنني لن أقدر اليوم على خلاصكم ونجاتكم ونجدتكم كما أنكم لن تستطيعون اليوم نجدتي أو إغاثتي أو تخليصي مما أنا فيه .

(إني كفرت بما أشركتموني من قبل) لقد تبرأت منكم ومن عبادتكم لي واتباعكم لي وسيركم ورائي في طريق الضلال. ويأتي ختام الآيات ليضع حداً لهذه المأساة حيث يقول الحق سبحانه: (إن الظالمين لهم عذاب أليم) وكأنه يقطع عليهم على الحوار الذي لا فائدة منه ولا خير فيه .

وفي السياق ذاته نجد الشيطان يعلن البراءة التامة من أتباعه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

من خلال هذه الآيات يتأكد لنا بأن الشيطان لا يقدر على أن يجبر إنساناً على فعل شيء لا رغبة له فيه ، ولا يستطيع أن يكرهه على القيام بعمل من غير أن تكون لديه الرغبة في فعله والحرص عليه، ولا يتعدى صنيعه نطاق الوسوسة بحال من الأحوال، ويبقى تبعة هذا الذنب على النفس الأمارة بالسوء فهي التي ترغب في مقارفة الذنب وارتكاب المعصية والفجور ثم بعد ذلك يريد المرء أن يتنصل من تبعة ذنبه فيلقي بمسئولية الفعل على شيطانه وما يقدر شيطانه على ذلك.

نخلص من ذلك أن قدرة الشيطان على الإغواء والإغراء والإضلال لا تتجاوز نطاق الوسوسة وهي الصوت الخفي الذي يهمس به الشيطان في قلوب أتباعه ، وما استطاع الشيطان إكراه واحد من البشر على فعل أمر وهو غير راض عنه أو على ارتكاب منكر وهو له كاره .

٢- الحكمة من خلق الشيطان:

إذا كان الشيطان منبع كل الشرور والآثام، ورائد الكفار إلى النار فهو قائد الهلاك الدنيوي والأخروي، ورافع الراية في كل وقت ومكان، يدعو الناس إلى الكفران، ومعصية الرحمن. فهل في خلقه من حكمة ؟ وما هي هذه الحكمة؟ ولماذا خلقه الله سبحانه وسلطه على العباد ؟ أما كان الأفضل للعباد أن يستريحوا من كيده وشره، حتى يتمنكوا من عبادة ربهم والخضوع له بلا منغصات أو عوامل تصرفهم عن هذا الأمر وتحول بينهم وبين الهداية والرشاد.

أجاب ابن القيم عن هذا السؤال فقال رحمه الله تعالى: في خلق إبليس وجنوده من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله فمن ذلك:

١- ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من إكمال مراتب العبودية:

فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه، ومراغمته في الله، وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به منه، واللجوء إليه أن يعيذهم من شره وكيده، فيترتب على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه... والموقوف على الشيء لا يحصل بدونه.

٢- خوف العباد من الذنوب:

ومنها خوف العباد والملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس وما شاهدوه من وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتم، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى،

وخضوع آخر، وخوف آخر، كما هو مشاهد من حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ، وهم يشاهدونه، فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد.

٣- جعله عبرة لمن يعتبر:

ومنها أن الله جعله عبرة لمن خالف أمره، وتكبر عن طاعته، وأصر على معصيته، كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه، أو عصى أمره، ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصرّ وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة إن تاب ورجع إلى ربه، فلله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة. والآيات الظاهرة.

٤ - جعله فتنة واختباراً لعباده:

ومنها أنه محك امتحن الله به خلقه، ليتبين به خبيثهم من طيبهم، فإنه خلق النوع الإنساني من الأرض، وفيها السهل والحزن والطيب والخبيث، فلابد أن يظهر ما كان في مادتهم ففي الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ فَجَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ [1].

فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في المخلوق منها، فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره، فلا بد من سبب يظهر ذلك، وكان إبليس محكّاً يميز به، كما جعل أنبياءه ورسله محكّاً لذلك التمييز، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ

(١) سنن الترمذي . كتاب تفسير القرآن . حديث رقم ٢٨٧٩ . وسنن أبي داود . كتاب السنة . حديث رقم ٤٠٧٣ . والمسند للإمام أحمد بن حنبل . مسند الكوفيين حديث رقم ١٨٧٦١..

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران:١٧٩].فأرسل رسله إلى المكلفين، وفيهم الطيب والخبيث، فانضاف الطيب إلى الطيب، والخبيث إلى الخبيث.

٥- إظهاره كمال قدرته سبحانه بخلق الأضداد:

ومن هذه الحكم أن يظهر كمال قدرته بخلق الأضداد، مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه، فإن خالق الأضداد كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث. قادر على كل شيء.

٦- وبخلقه يظهر الله لعباده حلمه وصبره:

ومنها أنه -سبحانه- يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره، وأناته، وسعة رحمته، وجوده، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به، ويضاده في حكمه، ويجتهد في مخالفته، ويسعى في مساخطه، بل يشبهه سبحانه وتعالى، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات، ويرزقه، ويعافيه، ويمكن له من أسباب ما يلتذ به من أصناف النعم، ويجيب دعاءه، ويكشف عنه السوء، ويعامله هو به من كفره وشركه وإساءته، فلله كم في ذلك من حكمة وحمد. ويتحبب إلى أوليائه بأنواع كمالاته كما في الصحيح عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عَنْهم عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَيْسَ أَحَدٌ أَوْ لَيْسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ*[1]

وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنْهم عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ

(١) البخاري . كتاب الأدب . حديث رقم ٥٦٣٤ ..

وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ)[1].

وهو سبحانه مع هذا الشتم له، والتكذيب له، يرزق الشاتم المكذب، ويعافيه، ويدفع عنه، ويدعوه إلى جنته، ويقبل منه توبته إذا تاب إليه، ويبدله بسيئاته حسنات، ويلطف به في جميع أحواله، ويؤهله لإرسال رسله ويأمرهم أن يلينوا له القول، ويرفقوا به. وفي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)[2].

٧- محبته سبحانه أن يكون ملاذاً ومعاذاً لأوليائه:

وفي هذا يقول ابن القيم: كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطي ويمنح، فمنها أنه يعيذ وينصر ويغيث، فكما يحب أن يلوذ به اللائذون يحب أن يعوذ به العائذون، وكمال الملوك أن يلوذ بهم أولياؤهم، ويعوذ بهم كما قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

والمقصود أن ملك الملوك يحب أن يلوذ به مماليكه، وأن يعوذوا به، كما أمر رسوله أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم في غير موضع من كتابه، وبذلك يظهر تمام نعمته على عبده إذا أعاذه وأجاره من عدوه، فلم يكن إعاذته وإجارته منه بأدنى النعمتين، والله يحب أن يكمل نعمته على عباده المؤمنين، ويريهم نصره لهم على عدوهم، وحمايتهم منه، وظفرهم به، فيا لها من نعمة كمل بها سرورهم ونعيمهم، وعدل أظهره في أعدائه وخصمائه.[3]

(١) البخاري . كتاب .تفسير القرآن . حديث رقم ٤٥٩٢ .

(٢) مسلم . كتاب التوبة . حديث رقم ٤٩٣٦ ..

(٣) عالم الجن والشياطين الدكتور عمر سليمان الأشقر ص ١٨٧ نقلاً عن شفاء العليل ص ٣٢٢ .

٣-الحكمة في بقاء إبليس إلى آخر الدهر:

تحدث ابن القيم، رحمه الله تعالى، عن ذلك في شفاء العليل [1]

١- امتحان العباد ، فمما ذكره رحمه الله تعالى:

أن الله جعله محكًا ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث، ووليه من عدوه، ولذا اقتضت حكمته إبقاءَه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته لفات ذلك الغرض، كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر، ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر، اقتضت امتحان أولاده من بعده به.

٢- وأبقاه مجازاة له على صالح عمله السابق:

ومنها أنه لما سبق حكمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة، وقد سبق له طاعة وعبادة، جزاه بها في الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر، فإنه لا يظلم أحداً حسنة عملها، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في الدنيا والآخرة، وأما الكافر، فيجزيه بحسناته ما عمل في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة، لك يكن له شيء كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٣- أملى له ليزداد إثمًا: وبقاؤه إلى يوم القيامة لك يكن كرامة في حقه، فإنه لو مات كان خيراً له، وأخف لعذابه، وأقل لشره، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية ومخاصمة من ينلغي التسليم لحكمه، والقدح في حكمته والحلف على اقتطاع عباده، وصدهم عن عبوديته، كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه، فأبقي في الدنيا، وأملي له ليزداد إثمًا على إثم ذلك الذنب، فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون رأس أهل الشر في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر. ولما كان مادة كل شر فعنه تنشأ، جوزي في النار مثل فعله، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ فيه ثم يسري منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمة بالغة.

---

(١) شفاء العليل ص ٣٢٧.

٤- وأبقاه ليتولى المجرمين:

ومن حكم إبقائه إلى يوم الدين أنه قال في مخاصمته لربه:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وعلم الله سبحانه أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له، وقال لهم بلسان القدر: هؤلاء أصحابك وأولياؤك، فاجلس في انتظارهم، وكلما مر بك واحد منهم فشأنك به، فلو صلح لي ما ملكتك منه، فإني أتولى الصالحين، وهم الذين يصلحون لي، وأنت ولي المجرمين من الذين عنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي، قال تعالى:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

فأما إماتة الأنبياء والمرسَلين، فلم يكن لهوانهم عليه، ولكن ليصلوا إلى محل كرامته، ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها، ومقاساة أعدائهم وأتباعهم، وليحيي الرسل بعدهم، يرى رسولاً بعد رسول، فإماتتهم أصلح لهم وللأمة، أما هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور، ولا سيما أنه قد خيرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به.

وأما الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوه في حياتهم خاصة، بل أطاعوهم بعد مماتهم، كما أطاعوهم في حياتهم، وأن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم، بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم، والله هو الحي الذي لا يموت، فكم في إماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمة. هذا وهم بشر، ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام، بل جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف، ولضاقت بهم الأرض، فالموت كمال لكل مؤمن، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا، ولا هناء لأهلها بها، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة.

الخاتمـــة:

بعد هذه الجولة المطولة مع عالم الشياطين والوقوف على مخططات الشيطان وكشف حيله وأساليبه ينتهي بنا الحديث إلى بيان مجموعة من النتائج بمثابة خلاصة لهذا البحث:

١- إن عالم الجن والشياطين عالم موجود فعلاً له خصائصه وله أساليبه ومنهجه في الحياة، وهو عالم واقعي كعالم البشر، ولا يعتبر عدم رؤية الإنسان لهذا العالم دليلاً على عدم وجوده، فحواس البشر لا تدرك كل شيء ولا ترى كل شيء، ومن بين الأشياء التي لا تدركها عالم الجن والشياطين، ويكفينا من أجل الإيمان بوجود هذا العالم أن الحق سبحانه قد أخبرنا عن وجوده فيكفينا في ذلك خبر السماء حتى نؤمن بوجوده ونوقن بحقيقته، وإن لم يمكننا الوصول إليه، أو أن ندركه بحاسة من حواسنا.

٢- إن عالم الجن كعالم الإنس من حيث الإيمان والكفر والطاعة والمعصية فمنهم المؤمنون ومنهم الكافرون. ومنهم الموحدون والعصاة المشركون، والكافر من الجن هو الشيطان كما وضحت ذلك آيات القرآن وأحاديث رسول -صلى الله عليه وسلم-.

٢-إن العداوة والصراع بين بني آدم والشياطين صراع أزلي منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا الصراع لا يهدأ لحظة ولا يفتر لثانية واحدة من الزمان، وينبغي أن يدرك الإنسان هذا حتى يأخذ حذره من الشيطان وكيده ولا يخدع بحيل الشيطان أو يغتر بأساليبه.

٣-إن هذه العداوة لا يمكن بحال من الأحوال أن تنقلب إلى محبة أو صداقة حتى ولو أوهم الشيطان بني آدم أنه ناصح أمين لهم فهو في كل الأحوال والمواقف العدو اللدود.

٤- ينبغي أن يكون المسلم على حذر شديد من الشيطان وكيده فعدوه لديه في الإضلال والإغواء والإغراء والخداع خبرة تفوق أهل الأرض جميعاً فهو قائم على رأس الدنيا من قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى آدم وظل قائماً على رأسها إلى يومنا هذا وسيظل باقياً إلى أن تقوم الساعة تحقيقاً لوعد الله سبحانه وتعالى له: **قال فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** [الحجر:٣٧-٣٨].

٥- من منطلق اعرف عدوك ينبغي على كل مسلم أن يكون على دراية تامة بأساليب الشيطان وحيله وطرقه في الإغراء والخداع حتى لا يؤتى على غرة أو يخدعه الشيطان من حيث لا يدري.

٦- عليه كذلك أن يحصن نفسه ويحميها بكل زاد رباني من الذكر والقرآن والعمل الصالح والعصمة بالله سبحانه حتى يمكنه مواجهة الشيطان وكيده.

٧- أظهرت الدراسة كذلك بأن الشيطان قد استحوذ على أكثر أهل الأرض وأنه قد نجح في تحقيق هدفه نجاحاً منقطع النظير، وصار معظم أهل الأرض حطب النار ووقود النار يوم القيامة فهم بين عابد وثن أو عابد بقر أو عبيد الشهوات بل إن منهم من عبد الشيطان من دون الله تعالى.

٨ - ينبغي أن يستشعر المؤمن فضل ربه عليه ونعمته به وقد اختار له الإسلام ديناً وحبب إليه الإيمان وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، ويستشعر نعمته كذلك وقد حفظه ربه وعصمه من الشيطان وكيده، وكان من الممكن أن يستحوذ عليه الشيطان كما استحوذ على قطاع كبير من البشر حتى صاروا من حزب الشيطان، ومن تمام شكر الله سبحانه أن يحافظ العبد على هذه النعمة ولا يفرط فيها فيضيعها بمعصيته لله تعالى.

٩- أظهرت الدراسة كذلك الصورة الحقيقية للشيطان وقدرته على الإفساد والإغواء والخداع والإضلال فعلى الرغم من كونه عدو لا يري وعنده في الإضلال خبرة بطول عمر الدنيا، ويملك من القدرات والإمكانات والطاقات ما لا يملكه

البشر، فعلى الرغم من ذلك كله يخبرنا المولى سبحانه وتعالى بأن كيد الشيطان كان ضعيفاً لا يتعدى كيده نطاق الوسوسة، فلا يملك أن يكره شخصاً على فعل لا يريده أو يكرهه على معصية ليست له فيها رغبة.

أضف إلى ذلك فلا سلطان له على عباد الله المخلصين وهذا ما أقر به الشيطان في نهاية المطاف حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٢٢].

وقوله تعالى﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾[النمل: ٩٩].

وعلى ذلك تسقط دعاوى الكثير من الفسقة والفجرة والمعربدين الذين يبررون لأنفسهم آثامهم وخطاياهم وذنوبهم يبررونها بأن الشيطان قد تمكن منهم وسيطر عليهم وأنهم قد صاروا مكرهين مجبرين على فعلهم هذا فلقد صاروا أسرى في يد الشيطان ولا يمكنهم الخلاص من هذا الأسر ، وعلى ذلك فلا مؤاخذة عليهم أو محاسبة فيما يقومون به أو يقترفونه ويرتكبونه، وكأن هذه الآية قد نزلت في أمثالهم حيث يقول المولى سبحانه: وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: ٢٨].

لقد أسقطت آيات القرآن دعاوى هؤلاء القوم وبينت بأن كل إنسان مسئول عن عمله كله ومحاسب عليه كذلك بين يدي ربه حيث يقول الحق

سبحانه: وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى [النجم ٣٩-٤١]

١٠- لقد كان خلق الشيطان وتسلطه على بني آدم إحدى صور البلاء التي ابتلى الله بها عباده ليميز الله بها الخبيث من الطيب وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة، فلولا ابتلاء بني آدم بالشيطان ما ظهرت معادن الناس على حقيقتها ولتساوى التقي الورع مع الفاجر الخبيث فليس هناك تمحيص لما في قلوب العباد، ولكن لما خلق الله الشيطان وسلطه على قلوب العباد أظهر هذا التسلط ما في القلوب وبين معادن الناس، وأن المؤمن قد اختار طريق الإيمان والطاعة والاستقامة بمحض اختياره وقاوم رغبات نفسه ونوازع الشيطان في نفسه ونجح في امتحانه هذا وثبت في ميدان البلاء.

المراجـــع

– أحكام القرآن، أبو بكر محمـــد بن عبـــد الله المعروف بابن العربي، المتوفى سنة ٥٤٣ هـــ، تحقيق علي محمد البيجاوي، دار الجيل – بيروت، ١٤٠٨ هـــ – ١٩٨٨ م.

– إحياء علوم الدين، الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥ هـــ دار الوثائق – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـــ – ٢٠٠٠ م.

– إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، قاضي القضاة الإمام أبو السعود محمد بن محمد العمادي، المتوفى سنة ٩٥١ هـــ، دار إحياء التراث العربي – ١٤١٤ هـــ – ١٩٩٤ م.

– أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي الموريتاني المالكي، المتوفى سنة ١٣٩٣ هـــ دار إحيـــاء التـــراث العربـــي – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـــ – ١٩٩٦ م.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم معان وفوائد وأحكام. إسلام منصور عبد الحميد.

– إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١ هـــ، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٢ هـــ – ١٩٩٢م.

– التحرير والتنوير، الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس، بدون تاريخ.

– التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي الشافعي، المتوفى سنة ٦٠٤ هـــ، – دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١ هـــ – ٢٠٠٠ م.

– التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر – بيروت، دار الفكر – دمشق، بدون تاريخ.

– الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، إعداد المكتـــب الثقافـــي، دار الفكـــر للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـــ – ١٩٨٧م.

– الدر المنثور في التفسير المأثور، الإمام عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـــ ط.دار الفكر، ١٤٢٣ هـــ – ٢٠٠٢ م.

– الدين وحماية الشباب من الانحراف السلوكي و الفكري – لمحمد خلف الله أحمد – التوجيه الإسلامي للشباب.

– السيرة النبوية. لابن هشام. عبد الملك بن هشام أبو محمد ط. الحلبى.

– الشيطان خطواته وغاياته وائل عمر على بشير.

– الصارم البتار في التصدي للسحرة والأشرار، وحيد عبد السلام بالي، مكتبة الصحابة جدة، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـــ.

– الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية. المعروف بحاشية الجمل. سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل.

– الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، رئاسة إدارة البحوث العلمية – السعودية، بدون تاريخ

– المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الإمام أبو محمد عبد الحق بن غالم بن عطية الأندلسي، المتوفى سنة ٥٤٦ هـــ

– المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، دار القبس – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣.

– المسند للإمام أحمد بن حنبل الشيبانى وبهامشه كتر العمال / دار صادر.

– المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث – القاهرة ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.

– المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٠٢ هـ، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة – بيروت

– الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة.

– الوابل الصيب – لابن القيم.

– تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، المتوفى سنة ٧٤٧ هـ، تحقيق مصطفى السيد محمد ومحمد السيد رشاد ومحمد فضل العجماوي وعلى أحمد عبد الباقي، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.

– تلبيس إبليس، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي، المتوفى سنة ٥٩٧هـ، حققه وعلق عليه أيمن صالح شعبان، دار الحديث – القاهرة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

– جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة ٣١٠ هـ، اعتنى بتصحيحه وفهرسته مكتبة التحقيق والإعداد العلمي بدار الأعلام، دار ابن حزم – دار الأعلام، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت.

– زاد المسير في علم التفسير، الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، المكتب الإسلامي – دار ابن حزم الطبعة الأولى.

– صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (أبو الحسن) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى / دار إحياء التراث العربى بيروت.

– طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الداودي، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم – السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

– عالم الجن والشياطين، الدكتور عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع – عمان، الطبعة العاشرة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

– فتح البارى شرح صحيح البخارى. ابن حجر العسقلانى. / دار المعرفة.

– فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى التفسير. محمد بن على بن محمد الشوكانى. ط دار المعرفة بيروت.

– في ظلال القرآن، بقلم سيد قطب، دار الشروق، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

– لباب النقول في أسباب النزول، العلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ، مكتبة الصفا، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

– معالم التنزيل في التفسير والتأويل، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي المتوفى سنة ٥١٠ هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، إعادة النشر ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م.

– معجم العين – للخليل بن أحمد الفراهيدي

– وقاية الإنسان من الجن والشيطان. وحيد عبد السلام بالي.

الفهـــارس:

مدخـــل: ٣

عناصر البحث : ٥

الأولى : الاستعاذة بالله تعالى..... ٦

مواطن الاستعاذة ومواضعها: ٧

الثانية : إخلاص العبودية لله تعالى ٨

الثالثة : الاستمساك بالكتاب والسنة: ١٣

الرابعة : الإخـــــلاص..... ١٧

الخامسة : التوبـــة النصـــوح ٢٠

السادسة : لزوم جماعة المسلمين ٢٢

السابعة :عدم الغفلة عن ذكر الله تعالى ٢٥

الثامنة : حفظ الجوارح والحواس: ٣٠

أولاً: حفظ البصر:..... ٣١

ثانياً: حفـــظ اللســـان: ٣٣

حفظ البطن عن أكل الحرام: ٣٤

من تتمة البحث : ٣٧

١-إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ٣٧

٢- الحكمة من خلق الشيطان: ٤٢

٢- خوف العباد من الذنوب: ٤٢

٣- جعله عبرة لمن يعتبر: ٤٣

٤ – جعله فتنة واختباراً لعباده: ٤٣

الخاتمـــة: ٤٨

المراجـــع ٥٢

الفهـــارس: ٥٦